الخـــلود

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة ، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع ، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه فى مظهر الحاضر ، وسلوة نتسلى بها عن الحرمان أو عثور الجد وسوء الطالع ، وثار من الموت ذلك الخصم العنيد الذى يحمل الشاب على الرحيل فى عنفوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه . فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس وشقاء وآلام وويلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم فى سبيل فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصور شتى وأشكال متباينة هى فى جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها . فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل وسفك الدماء الخلودَ على أنه عودة للانسان فى شكل مارد جبار شيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيه المرء فى حلل السعادة وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينه والزخرف ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته فى صورة أسمى ، وكسته بكساء أفخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع العامة والدهماء وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى ، وعذوبة الخيال فنتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ، وحرمة الدين فنؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفه ، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما لا يخضع لمبادىء القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يتفهم سره وغايته ويبرهن على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود كلمتها بالإيجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة الحاضرة وقوانينها لم يفتهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يبدئوا فيه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا ، فهو من فلسفتهم الدينية فى صميمها ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع ، ثم لم يقنع بهذا فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هى « فيدون » . وفيها يجرى ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله من الأتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى مبدع يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المتهم البرىء الذى

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحى الذى يسعى إلى الموت فى خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث عن خلود الروح فى آخر يوم من أيام حياته فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة فى حواره من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف وافتنان فى وسائل الأثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن نلاحظ أولا أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الاصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد . وما دام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان . وقديما قالت الأرفيه والفيثاغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ! وبهذا يخرج الحى من الميت كما يخرج الميت من الحى ، وتبقى النفس رحالة منتقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ! والشبيه وحده هو الذى يدرك الشبيه . فلا بد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها ، فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يجتمع فى ماهية واحدة ضدان ! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ، وأنى لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون فى برهنته ؟ إذا اختبرنا أدلته لم نتردد فى أن نجيب بالسلب ، فان فكرة صدور الضد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الأغريق أن الانسان لا يدرك إلا ما يشابهه . فإنا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الانسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسى القديم الذى كان يعد النفس فى آن واحد مصدر الحياة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فأنه يصرح على لسان سمياس أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير فى هذه الحياة . وجدير ببحث كهذا أن يوضع فى قالب القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين

وسواء أوفق أفلاطون فى برهنته أم لا فانه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا حبب إلى الخلف السير فيه . فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به فى هذا الصدد ابن سينا الذى قد يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توفر لديه مالم يتوفر لدى أستاذه ! فقد وقف على الوحى الألهى الذى صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة فى الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفى خيال حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوى ومقامها فى هذا العالم الفانى ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر - وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات توجع

* * *

ان كان أهبطها الاله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين خرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأبى ألا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس وهى جوهر بسيط لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أى استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم فنى ، فان صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد فى شيء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر فى شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هى المتصرفة فى البدن والمدبرة لأمره ، ولن ينقلب الآمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً .

بيد أن حظ ابن سينا فى هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) الى هذا التهافت فى البرهنة والقصور فى الاثبات . فرفض فى كتابه « نقد العقل المجرد » الأدلة التى تساق لاثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يهتدى الى شىء يقينى فى دائرة الأمور المغيبة ؛ وفى هذا مايسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان فى جانبه ، وما يهيء للوحى والألهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر . خصوصا والتبعة الأخلاقية لاقيامها بدون الثواب والعقاب والحساب والمسئوليه ، والواجب فى حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرته . لهذا نرى (كانت) يعود فى كتابه « نقد العقل العملى » فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمى الذى ننشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما فى حياتنا الحاضرة القصيرة . فأن شئنا أن يكون للواجب الذي ننادى به قيمته وللأخلاق التى ندعو اليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما والعدالة تأبى كل الأباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعدام ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأنى بكانت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكاديمى فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاق ليس اكثر إقناعا من سابقيه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادىء أخرى .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار وأن تنزلج فى هذا المأزق الحرج . فى مقدورنا أن نقول إنه ممكن أو محتمل أو ضرورى ، ولكن لاسبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعى . وأنى لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين وليس فى وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة . واذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره . وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادى أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة . وأن بحثهم يرفض أى وجود بعد هذا الوجود . فأن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه ، وللبحث العلمى دائرة لا يتعداها ؛ ومن العبث أن تتكلم باسم العلم فى دائرة تسمو على العلم ، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود . ولن يضير الخلود فى شىء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع . ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض فى بيانه فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم . هو أمر خارج عن عالم الفناء وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضحا مايتنافى وطبيعته ألا أن عرج الى سماء الخالدين

ابراهيم مدكور

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

مرتباً ترتيبا حديثا ومصححاً تصحيحاً علمياً على أصوله الخمسة وهى الصحاح للجوهرى وحواشيه والنهاية لابن الأثير والجمهرة لابن دريد والمحكم لابن سيده والتهذيب للأزهرى

ارسل ٢٥ قرشا صاغا باسم الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى مدير دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف - بعطفة الشوشترى خلف بلاتشى بالموسكى - يصلك الجزء الأول منه وتعد مشتركا فى الجزء الثانى

ملاحظة : ثمن الجزء قبل الطبع ١٠ قروش و ١٥ قرشا بعده ، وأجرة البريد لمن فى القطر المصرى قرشان صاغا ونصفه لمن فى الخارج .